هيّا على درس تاريخ بلادنا

بقلم الاب لامنس اليسوعي

نشر كاتب هذه السطور ، تحت هذا العنوان ، في اول سنة للمشرق (١) نداء دعا به قراء المجلة من لبنانيين وسوريين الى درس تاريخ البلاد - وهما قد مضت ثلاثون سنة على ذاك النداء . على ان ادارة المجلة ، بيطا كانت تنتظر سماع صدى له ، رأت من المفيد ان تشجع القوم بمثلها في الابحاث التاريخية ، فاهتمّ محرّروها بالامر ؛ وكان في مقدّمتهم مؤسسها المأسوف عليه المرحوم الاب لويس شيخو . وقد اشرنا الى ذلك في المقالين اللذين خصصناهما بقسم ضئيل من اعماله العلمية ، ونشرناهما في عددي شباط واذار من هذه السنة . ولم يلبث معاونوه ان اقتفوا اثاره المجيدة حتى انه يصعب علينا ذكر عدد من المشرق خلا من بحث في ماضي سورية ولبنان ، وتاريخهما الديني والمدني والادبي والفني ، وآدابهما ، ولغاتهما القديمة والحديثة .

وليس الذنب ذنبنا ان لم يمكننا تحقيق المشروع منذ ذاك العهد بتأليف تاريخ مستوفٍ لسورية . فان الاستبداد التركي كان يحول بيننا وبين هذا التحقيق ، ذاك الاستبداد الذي لم يكن يسمح للمشرق ان يذكر اسم «الامويين» . فلزم اذن حدوث الحرب العامة وما جرّته من الانقلابات ، وسقوط السيطرة التركية ، حتى امكننا ان ننشر سنة ١٩٢١ ، تاريخنا لسورية .

وقد أبنتُ ، في النداء الذي دعوت به منذ ثلاثين سنة ، تقدُّم الدروس التاريخية بفضل اختيار المصادر والتقيد الدقيق بها ، ودرس الوثائق التي يستخدمها المؤرخون ويستندون اليها . ثم اقترحت انشاء جمعية للتواريخ ، ونشرت رسماً لبيان اعمال هذه الجمعية ، وحدّدت غايتها . ومنذ ظهور هذا الرسم شاهدتُ

(١) المشرق ١ [١٨٩٨] : ٣٦

بلاد سورية ولبنان كثيراً من الجمعيات المختلفة الغايات والقاصد : شركات تجارية ، جمعيات لتعزيز سباقات الخيل ، اندية رياضية ، الى غير ذلك من الجمعيات المتباينة . اما التاريخ فلا يزال ينتظر دوره . كما لو كان التاريخ نوعاً من الترف يجدر بالشعوب الغنية وحدها ان تهتم به . وكما لو كانت الوطنية تثبت وتحيا الا بتفهم ماضي البلاد ودرسها .

ولم يفت صاحب النداء ما في بلادنا من العقبات ، فتدبر بالروية حالة الزمان والمكان . فلم يجازف بالآمال والاحلام ، ولم يرغب في منافسة الجمعيات العلمية الكبيرة في اوربة ، بل حدد افق رغباته على حاجة البلاد وقال :

« ويا حبذا لو قام في كل طائفة جمعية غايتها درس التاريخ الطائفي . فيكون رئيسها الشرفي بطريرك الملة ، وهو يعين لها رئيساً عاملاً احد الاساقفة ، او رجلاً من اعيان الطائفة له الهام بالدروس التاريخية . فتتألف الجمعية من اعضاء مشتركين وعاملين ، وكلهم يدفعون راتباً معيناً لسد نفقاتها . وتطبع في كل سنة نشرة حاوية خلاصة اعمالها في سبيل غايتها . »

ثم ذكر عشر مواد تحدد في نظره اعمال هذه الجمعية . وهاك اولاها :

« ان تنشر مع الضبط نص الاوراق الرسمية المتعلقة بالطائفة كالفرمانات مثلاً ، والمعاملات الصادرة من الباب العالي مما له دخل في تاريخ الطائفة . وكذلك براءات البابوات المحفوظة في الفاتيكان او في سجلات البطريركية . »

* * *

وها نحن بعد انتظار ثلاثين سنة ، نستقبل ، بعاطفة ذهول وسرور ، نشرة الدكتور اسد رستم ، استاذ التاريخ في الجامعة الاميركية . وانا ننشر سطوره هذه في مجلتنا بكل ارتياح ، حاثين قراءنا الكرام على ان يساعدوا ، كلٌ بقدر امكانه ، هذا المشروع الخطير الذي يقوم بنشره المؤرخ العالم :

« رأت ادارة مكتبة جامعة بيروت الاميركية ان تعنى عناية خاصة بجمع وتنسيق وحفظ جميع الاوراق العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا وابنه

ابراهيم باشا المشهور حرصاً عليها وخدمة للعلم والتاريخ . وقد توفر لديها الآن اكثر من اربعة آلاف رسالة رسمية وغير رسمية . ولما كانت ادارة هذه المكتبة تعتقد ان النشر لا يأتي بالفائدة العلمية المطلوبة الا متى شمل كل الموجود من هذه الاوراق رأت ان تنشر على صفحات هذه المجلة الآن انموذجاً للاصل كله الذي سينشر في كتب على حدة في المستقبل القريب

والقصد من نشر هذا الانموذج الآن هو اعلان غايتنا هذه لجميع السوريين والمصريين حثًّا للذين لم يساعدونا باتحافهم ايانا بما لديهم من الاوراق العربية الرسمية والغير رسمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ترجع الى عهد محمد علي باشا في هذه البلاد (سورية من غزة هاشم الى جبال طورس ما بين سنة ١٨٣١ و ١٨٤١ م . و١٢٤٧ و ١٢٥٧ هـ .) وان باشال هذا التعاون نأمل لنا ولمن يأتي بعدنا استكمال هذا المشروع التاريخي المفيد وغايتنا ايضاً ان نقسم هذه المجموعة متى تمت وعدت للطبع (والجزآن الاول والثاني من الاوراق السياسية معدان للطبع الآن) الى قسمين رئيسيين: الاوراق السياسية، والاوراق الاقتصادية الاجتماعية

وسنضع لهذه المجموعة مقدمة مطولة في «تاريخ» هذه المصادر الخطية (الاوراق العربية نفسها) وكيفية قراءة اصطلاحاتها الفنية والخطة التي نتشى بوجبها في نشر محتوياتها . ومن ثم تأتي الرسائل نفسها مرتبة بترتيبها التاريخي ومنشورة بموجب نصوص شرائع الاسارب العلمي في التاريخ — اي اننا نوجه انظارنا اولًا الى ضبط كلمات هذه الرسائل وقراءتها كما يقرأها واضعوها فيما لو تسنى لنا اوانه ان يقرأها امامنا ثم نجتهد في تعيين تاريخها اذا كانت مجهولة التاريخ وتعيين مؤلفها اذا كان مجهولًا ايضاً.»

ويرى المطالع في الصفحة التالية انموذجاً من هذه الاوراق

محمد سليم باشا وابطريرك يوسف حبيش

١٩ ربيع الاخر سنة ١٢٥٦

٢١ × ٣٢ س من الورق السكوكي القديم وهو محفوظ بين اوراق سنة ١٨٤٠ في مكتبة بكركي لبنان . ومنه نسخة بالفوتغراف بين اوراق سنة ١٢٥٦ هـ . في مكتبة جامعة بيروت الاميركية

فخر الملة المسيحية وقدوة الطايفة العيساوية بطريرك الوارثة في الشرق زيد قدره غب السؤال عن احوالك المنهى اليك انه لقد شرع ديوان باب همايون الدولة العلية صانها رب البرية بموافقة اراء حضرات الملوك العظام انكلتر ومسكوب وفسا وبروسيا على رفع الاثقال الصادرة من عساكر النصرية الخوارج عن عدم ولايتهم وادمارهم من الوجود قصاصاً لما فعلوه من المظالم في بلاد سوريا وقد تصدر الامر الهمايوني وحصل خط شريف خصوصي فيما يخص جبل لبنان ان كلاً منهم يبقى على عادته القديمة وتكرمت مكرمتنا هذه الدولة السعيدة باعطاء انعامات موبدة ومنها محدودة لمن يقوم بصدق الخدامة من اكابر واصاغر وانتشر السنجق الملوكي الهمايوني المستطاب بتوجيه العساكر المنصورة برًا وبحرًا وقد تيسر وصولنا بعناية صاحب العناية الى صحراء جونية كروان بجانب وفير من الجيوش المتأيدة والآن لزم تصدير مرسومنا هذا الدستوراني اليكم فبحال وصوله اليكم ووقوفكم على مضمونه ان تكونوا طيبين القلوب والخواطر وان شاء الله لا تشاهدوا من طرفنا الا كلما يسركم يلزم تشهروا مرسومنا هذا على كل من هو تحت طاعتكم مطارين ورهبان واكليروس وعامة ان يكون حاصل عندهم الاطمئنان وبلوغ الامان ما عدا الذي يبدا من احدهم وساوس ام مفاسد لمعاونة الدشمان الخوارج الخاسرين فيكون جزاه عبرة وشهرة اعلموا ذلك واعتمدوه غاية الاعتماد في ١٩ ر سنة ٢٥٦

الختم سليم

قايد جيوش الدولة العلية